الإعجاز البياني في القرآن الكريم

سورة الغاشية

محمد مبارك المزيودي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ (١) وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ (٢)
عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ (٣) تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ (٤) تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ (٥)
لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ (٦) لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ (٧)
وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ (٨) لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ (١٠) لَّا
تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ (١١) فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ (١٢) فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ (١٣)
وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ (١٦) أَفَلَا
يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ (١٧) وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ
(١٨) وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ (١٩) وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ
(٢٠) فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ (٢١) لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ (٢٢)
إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ (٢٤) إِنَّ
إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم (٢٦) ﴾ الغاشية: ١ – ٢٦

سورة الغاشية

مكية ، وهي ست وعشرون آية

مقاطع السورة

جمعت هذه السورة بين ثلاثة محاور

١- الحقيقة الغيبية ﴿ الغاشية ﴾ ومايكون فيها.

٢- النظر في خلق الله ﴿ أفلا ينظرون ﴾

٣- ماعلى الرسول إلا البلاغ ﴿ فذكر ...﴾

وهي محاور ينبني بعضها على بعض، فقد أُرسل محمد ﷺ ليخرج الناس من الضلال إلى الهدى، فقرأ عليهم بلاغ ربهم بأن إلههم هو الله، ولا إله إلا هو، وأنهم مبعوثون بعد موتوهم، فيجزيهم على مافعلوا جنةً أو ناراً. وكان الله عز وجل قد أمد الإنسان بما يرشده إلى صدق هذه الحقيقة الغيبية، فجعل له عقلاً ينظر به في ملكوت الله يدرك مما يشهده في ذلك الملكوت أنما يخبر به محمد ﷺ حق، وفي ذلك يقول جل شأنه :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ فصلت: ٥٣

ووفقاً لهذا النظام ليس محمد ﷺ إلا أن يذكر الناس، لا أن يخبرهم على الإيمان ، بل يذكرهم ويتركهم لعقولهم إن كانوا يعقلون. وقد ابتدأ جل شأنه السورة بذكر الحقيقة الغيبية ﴿ الغاشية ﴾ لأنها المحور الأساس الذي أراد الله للعباد أن يعتقدوه، ثم نبه إلى

ضرورة النظر في ملكوت الله، لأنه نظر يُفضي إلى الإيمان بصدق الحقيقة الغيبية، أما موقع محمد ﷺ من ذلك المشهد فهو التذكير:

١- الغاشية ومآل الناس فيها:

﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ۝٣
تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ ۝٤ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ۝٥ لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ۝٦ لَّا يُسۡمِنُ
وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ۝٧ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ ۝٨ لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ۝١٠ لَّا
تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ ۝١١ فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ ۝١٣ وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ ۝١٤ وَنَمَارِقُ
مَصۡفُوفَةٞ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ ۝١٦ ﴾ الغاشية: ١ - ١٦

٢- شواهد هذه الحقيقة

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ۝١٨ وَإِلَى
ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ۝١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ۝٢٠ ﴾ الغاشية: ١٧ - ٢٠

٣- وماعلى الرسول إلا البلاغ

﴿ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ۝٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ۝٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ
۝٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ ۝٢٤ إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ۝٢٦

﴾ الغاشية: ٢١ - ٢٦

١- الغاشية ومآل الناس

ذكر المولى عز وجل لفظ ﴿ الغاشية ﴾ ولم يذكر مايكون من تبدلات وتحولات في السماء والأرض، إنما التفت مباشرة إلى وصف مآل أهل الضلال ومآل أهل الإيمان.

أولاً : مآل أهل الضلال

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ۝٧ ﴾ الغاشية: ١ - ٧

﴿ هل أتاك حديث الغشية ﴾

هل : حرف استفهام، وقد ذكر أهل التفسير أن الاستفهام قد خرج عن معناه الحقيقي إلى معنى التقرير، أي: قد أتاك ...فماذا أن لم يكن هذا الحديث قد أتاه من قبل ؟

تسمية يوم القيامة باسم ﴿ الغاشية ﴾ لم يرد في القرآن إلا مرة واحدة، وهي تلك المذكورة في هذه السورة، وقد سمي يوم القيامة بأسماء أخرى في كتاب الله، وقرين كل اسم ذكر الله دلالته أومايشير إليه. وهاهو جل شأنه يذكر لعبده ورسوله لفظ ﴿ الغاشية ﴾ ولم يكن محمد ﷺ يعلم أنه اسم من أسماء يوم القيامة، فسأله ربه ﴿ هل أتاك حديث الغاشية ﴾ وهو استفهام حقيقي لاتقريري ، وقد سأله ربه هذا السؤال وهو يريد أن يقدم له بياناً له، وقيمة الابتداء بالسؤال الإشعار بعظم أمر ماسيخبره به ربه، والإشارة إلى أنه لم يكن له سابق علم بما كان يلقيه على الناس من خبر اليوم الآخر.

* ﴿ الغاشية ﴾ أكثر المفسرين قالوا هي القيامة التي تغشى الخلائق بأهوالها وأفزاعها، ولكن البيان المذكور في الآيات التالية لايذكر أهوالاً فقط، بل يذكر أيضاً سروراً ورضى ، أي أن الناس تحت الغاشية على وجهين: خاشعة ذليلة وناعمة راضية، وكل ذلك جاءت كلمة ﴿ الغاشية ﴾ منطوية عليه وإذا نظرنا إلى الاستخدام اللغوي للكلمة وجدناها تشير إلى معنى الإقبال، والإقبال تتنوع أحواله، بحسب نوع المُقبل ، فالوجه يغشاه الحزن أي تُقبل علاماته عليه فيبدو الوجه حزيناً، ويغشاه السرور والرضى فيبدو الوجه مسروراً راضياً.

﴿ وجوه يومئذ خاشعة ﴾

وجوه: نلاحظ في البيان القرآني حرصاً على ذكر الوجوه في مشهد ﴿ الغاشية ﴾ :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ القيامة: ٢٢ - ٢٥

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾ عبس: ٣٨ - ٤٢

وهذا الحرص على استخدام الوجوه لم يأتِ عفواً، بل هو مؤشرٌ على أن الوجه هو الإنسان ذاته، ليس بمعنى الهيكل العام، إنما من حيث مُجمل فعاليات الإنسان، فالحواس الخمس موجودة في الوجه: السمع والبصر والشم والذوق واللمس، ولايشترك باقي الجسد مع تلك الحواس إلا في حاسة اللمس. وكل مايعتمل في قلب الإنسان وفي نفسه لايفصح عن نفسه إلا من خلال الوجه فالوجه يختصر الحالة الإنسانية في الملامح التعبيرية التي تظهر

عليه ، فكان في وصف وجوه الضالين بأنها خاشعة عاملة ناصبة تلخيصاً لكل ماتلقاه هياكلهم الإنسانية يوم القيامة ﴿ الغاشية ﴾

* ﴿ خاشعة ﴾ الخشوع مظهر تعبيري يبدو على الوجه، ويكون ترجمة لحالة مخصوصة قد خالطت النفس وهذه الحالة قد تكون محمودة، وقد تكون مذمومة، أما الحالة المحمودة فشاهدها قوله تعالى:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ ﴾ المؤمنون: ١ - ٢

والخشوع في الصلاة تبعٌ لخشوع القلب، ومظهره هو سكون الأطراف، وانخفاض الوجه وانكسار العين، وكل ذلك إنما هو سبب هيمنة الشعور بالتصاغر على النفس أمام عظمة الله تعالى .

أما الحالة المذمومة فشاهدها في واقع الإنسان أن الولد إذا اقترف ذنباً عظيماً، ثم استدعاه أبوه ليسأله عما فعل ، فإنك سترى هذا الولد يقف أمام أبيه ساكن الأطراف منخفض الوجه لايرفع بصره إلى أبيه، أي أنه في حالة خشوع، إلا أن الباعث إليه هو الشعور بالذلة والهوان مما اقترفت يداه ، ومن ذلك قوله سبحانه في وصف الكافرين وهم يُساقون إلى جهنم:

﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾
الشورى: ٤٥

وبتتبع الآيات في كتاب الله نجد أن الوصف بالخشوع في الحياة الدنيا وصف محمود، والوصف به يوم القيامة وصف مذموم. وقد ورد في كتاب الله وصف الأبصار بالخشوع، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ٤٤ ﴾ المعارج: ٤٤

فأبصارهم منخفضة لشعورهم بالخزي والهوان كحال ذلك الولد مع أبيه، وإذا أرادوا أن ينظروا إلى شيء رأيتهم ﴿ ينظرون من طرف خفي ﴾ .

* فالبصر يوصف بالخشوع، وقد عرفنا مظهره والباعث عليه، والهيكل العام للإنسان أيضاً يُوصف بالخشوع وقد عرفنا مظهره والباعث عليه في صفة المؤمنين في الصلاة. وهاهو الوجه في آية ﴿ الغاشية ﴾ يوصف بالخشوع فكيف يكون الوجة خاشعاً ؟

إن وجه الإنسان عجيبة من العجائب، إذ أن قسماته تتخذ أوضاعاً عديدة فيأتي كل وضع معبراً عن حالة شعورية وقلبية مخصوصة ، فالسرور له وضع والحزن كذلك، والطمأنينة والقلق والفزع والشك والاستفهام...وغير ذلك كلها حالات تدور في باطن الإنسان فتتشكل معها قسمات الوجه تشكيلاً يعبر عن هذه الحالة أو تلك، وهذا التعبير قد يكون ظاهراً جلياً وقد يكون خفياً فلا يدركه إلا أصحاب النظر الدقيق ﴿ الفراسة ﴾ فما هي الفاعلية الباطنية التي جعلت وجوه أهل الضلال خاشعة يوم القيامة ؟

إنها قوله تعالى

﴿ عاملة ناصبة ﴾

* اختار بعض أهل التفسير توجيه دلالة ﴿ عامة ﴾ إلى مايكون من أصحاب هذه الوجوه في الحياة الدنيا، واستندوا في ذلك إلى أن الآخرة ليست دار عمل، إنما دار جزاء، والواقع أن السياق سياق وصفٍ للوجوه يوم القيامة، فما علاقة هاتين الصفتين بدلالة خشوع الوجه :

النّصب في اللغة يعني التعب، فكانت الصفتان بذلك متلازمتين تلازم السبب بالمسبب، إذ إن التعب، نتيجة حتمية للعمل، فلذلك قُدم العمل على النصب، وقبل الخوض في نوع العمل الذي وسمت به تلك الوجه ننظر في علاقة هاتين الصفتين بصفة ﴿ خاشعة ﴾ :

من السهل وصف هذه العلاقة بالكلمات، ولذلك سأستعين بصورة يشهدها الإنسان في واقع الحياة، ألا وهي صورة الرجل الذي يخرج قبل بزوغ الشمس لعملٍ هو من الأعمال الشاقة، ثم يعود إلى بيته آخر النهار تعباً من ذلك العمل، فإنك ستراه يمشي متراخياً، وهذا التراخي إنما هو ترجمة لما يجده في بدنه من نقصان في القدرة التي استهلكها في ذلك العمل، ومايظهر على بدنه من تراخ يظهر على وجهه، لأن الوجه فيه جملة من العضلات هي في حاجة إلى طاقة لتكون مشدودة، وقد استنفذ الرجل قسماً كبيراً من طاقته، فلا همّ له إلا أن يريح جسده من ذلك النصب الذي يعانيه، ولذلك فإن قسمات وجهه سيظهر التراخي، بحيث أن من يراه سيقول له : إن آثار التعب بادية على وجهك. □

□ ونلاحظ أن الصفات الثلاث : خاشعة، عاملة، وناصبة، قد سيقت في نسق بياني مخصوص جعلها متلبسة بدلالتي الوصل والفصل:

أما الوصل فقد جاء على مستويين:

الأول: الجمع بين الصفتين ﴿ عاملة ناصبة ﴾ فجمع بين الصفتين في آية واحدة فذل ذلك على أن الله عز وجل يسلط عليهم العمل الذي يبلغ بهم حد النصب ﴿ التعب ﴾ ولم يفصل بينهما بحرف العطف لبيان أنهما شيء واحد لاشيئان ، لما بينهما من تلازم لاانفكاك معه.

الثاني: كلمة ﴿ خاشعة ﴾ جاءت في آية مستقلة عن الآية اللاحقة، ومع ذلك فهي متصلة بالصفتين ﴿ عاملة ناصبة ﴾ ووجه اتصالها أنهما جاءتا مرفوعتين تبعاً لكلمة

﴿ خاشعة ﴾ وإنهما لم ينفصلا عنها بفاصل لغوي، فدل بذلك الوصل أن خضوع الوجه ملازم للعمل المُنصب .

أما الفصل فهو ذلك الفاصل الرقمي الذي فصل كلمة ﴿ خاشعة ﴾ عن الكلمتين الأخريين، فدل بذلك الفصل على أن دلالة ﴿ خاشعة ﴾ وصف مجمل لتلك الوجوه، وأن ﴿ عاملة ناصبة ﴾ جاءت لتفصيل ذلك المجمل أو لبيان سببه وهو نسق مشابه تماماً لقوله تعالى:

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ عبس: ٣٨ ــ ٣٩

فجاءت الكلمتان ﴿ ضاحكة مستبشرة ﴾ لبيان دلالة الإسفار.

* وقد وصفت الوجوه بأنها ﴿ عاملة ناصبة ﴾ مع أنها لاتؤدي عملاً، وذلك بالنظر إلى ماقلناه سابقاً من أن الوجه هو الواجهة التعبيرية لكل مايعتري الجسد . فما هو العمل الذي يؤديه أصحاب تلك الوجوه فيُنصبهم ؟ □

في الحياة الدنيا جعل الله الأحوال مرهونة بالأسباب، فإذا رأيت وجهاً خاشعاً كان ذلك بسبب أن صاحبه عامل ناصب، أما يوم ﴿ الغاشية ﴾ فالأحوال ليست مرهونة بالأسباب، إنما هي مرهونة بمشيئة الله، بمعنى أن الوجه إذا كان خاشعاً دلّ ذلك على أن الجسد عامل ناصب، وليس ثمة عمل، وإنما هي مشيئة الله التي أرادت للجسد أن يكون متلبساً بهذه الحالة.

ثم إن الناس يوم الغاشية في عمل لايتوقف إلا عند الحساب، وهو مكابدة حرّ الشمس والزحام الشديدين، لقول رسول الله ﷺ :

﴿ تُدنى الشمس يوم القيامة من الخلق، حتى تكون منهم كمقدار ميلٍ ، فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق: فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمهم العرق إلجاماً ﴾ رواه مسلم

وفي بيان شدة انشغالهم بما هم فيه قال رسول الله ﷺ لعائشة رضي الله عنها: ﴿ يحشر الناس يوم القيامة حفاةً عراة غُرلا ﴾ قلت يارسول الله، النساء والرجال ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال ﴿ ياعائشة ، الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض ﴾ رواه البخاري

* وقد أطلق جل شأنه كلمة ﴿ وجوه ﴾ فلم يقيدها بكفر أو شرك عصيان، فأفاد بذلك الإطلاق عموم الدلالة، أي استيعابها لوجوه كل تلك الطوائف، فالمسلم الذي أسرف على نفسه ولم يتب إلى الله، داخل في إطار تلك الوجوه، ولو أردنا ذكر الشواهد لاستغراق منا ذلك حيزاً كبيراً .

﴿ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ ﴾ الغاشية: ٤

* هذه الآية خبر آخر من الأخبار المتعددة للمبتدأ ﴿ وجوه ﴾ إلا أنه يختلف عن تلك الأخبار بأنه جملة فعلية، في حين أن الأخبار السابقة جاءت أسماء، وفي اللغة يفترق الاسم عن الفعل ، إذ يفيد الاسم ثبات الصفة وعدم خضوعها للتبدل والتغير، أما الفعل فيفيد التجدد والاستمرار، أي أنه لايثبت على مستوى دلالي واحد، ووفقاً لذلك فإن مجيء دلالات الخشوع والعمل والنصب في إطار اسمية الكلمة يفيد ثبات هذه الدلالات على مستحقيها.ووجه الثبات فيها أنها جاءت وصفاً لما يعتري تلك الوجوه في موقف الحشر وهو موقف لاتتجدد فيه أسباب المعاناة، إنما هي أسباب ثابتة لايتعريها نقصان أو زيادة.

أما قوله ﴿ يصلى ناراً حامية ﴾ فقد انتقل به جل شأنه من موقف الحشر إلى النار، فأتى بالفعل المضارع ﴿ يصلى ﴾ الذي يفيد التجديد والاستمرار ، وكذلك هو عذاب أهل النار، متجدد ومستمر، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾النساء: ٥٦

إذا نضج الجلد من حرق النار فإنه بسبيل التفحم، وإذا تفحم فقد الحس بعذاب النار، ولذلك يجدد الله لأهل النار جلودهم ليستمر عذابهم.

* ﴿ ناراً حامية ﴾

جاءت كلمة ﴿ ناراً ﴾ نكرة تدل على متعدد فاستوعبت هذه النكرة كل ﴿ الوجوه ﴾ الموعودة بالنار، فنار الكافر غير نار المنافق وغير نار المسلمين العصاة فقد ذُكر أن الأشقى هو ﴿ الذي يصلى النار الكبرى ﴾ ، ولفظ الكبرى أفعل تفضيل يستلزم وجود نار أخرى هل أقل كبراً منها، والكبرى أيضاً تستلزم وجود الضد المقابل لها وهو لفظ الصغرى، فالنار واحدة، وهي المسماة بجهنم، إلا أنها مستويات العذاب لهذه النار متعددة، فإذا كان المستوى عالياً سميت ناراً كبرى، وإذا كان متدنياً وصف بحسب درجته، حتى نصل إلى النار الدنيا، فجاء وصف كلمة ﴿ ناراً ﴾ بأنها ﴿ حامية ﴾ للاحتراز من أن يظن أحد أن تدني مستوى النار قد لايجعلها حاميةً.

ومن وجه آخر جاء الوصف ﴿ حامية ﴾ التفاتاً إلى مايعلمه الإنسان من النار الدنيوية، فهي نار حامية، فجاء وصف نار الآخرة بأنها حامية لبيان أن النار الدنيوية تسقط عنها صفة حامية إذا قيست بنار الآخرة، وهو قول رسول الله ﷺ :

﴿ ناركم هذه التي يُوقدُ ابن آدم جزءٌ من سبعين جزءاً من حر جهنم ، قالوا: والله إن كانت لكافية يارسول الله، قال : فإنها فضلت عنها بتسعة وستين جُزءاً كلها مثل حرها ﴾ رواه مسلم والبخاري.

* الفعل ﴿ تصلى ﴾ فعل مضارع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره ﴿ هي ﴾ يعود على الوجوه، فمازال الكلام مسنداً إلى الوجوه مع أن الجسد كله يصلى النار، وفي ذلك نجد البيان التالي :

ذكر الله عز وجل الوجوه وهو يريد كامل الجسد من قبيل المجاز المرسل بعلاقته الجزئية، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ يقولون بألسنتهم ﴾ فذكر الجزء وأراد الكل، لأن الإنسان لايتكلم بلسانه فقط ، فكان في ذكر اللسان تحديداً دلالةً على ماله من شرف على بقية أجزاء النطق. ومن هذا القبيل ذُكر الوجه إشارة إلى شرف وجه الإنسان على سائر الجسد وإشارة أيضاً إلى أن الوجه أكثر أجزاء الجسد إحساساً بلفح النار، قال تعالى في وصف الذين خسروا أنفسهم يوم القيامة :

﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ المؤمنون: ١٠٤

﴿ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ ﴾ الغاشية: ٥

* عين: عين ماء

آنية : متنهية في شدة الحر، من أني يأني.

الكلمتان : حامية ، آمنة. كل منهما تعني شدة الحر، إلا أن الأولى جاءت وصفاً للنار،والثانية جاءت وصفاً لعين الماء التي يُسقى منها أهل النار. وهو مايستلزم أن يكون

هناك تفاوت في شدة الحر، فليس للماء أن تبلغ حرارته درجة حرارة النار، وكنت في الآية السابقة قد بينت الوجه البياني في ذكر كلمة ﴿ حامية ﴾ وصفاً لكلمة ﴿ ناراً ﴾ وإشارتها إلى تعدد مستويات العذاب، فهل تمضي كلمة ﴿ آنية ﴾ أيضا إلى مامضت عليه كلمة ﴿ حامية ﴾ ؟

قال تعالى :

﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ الحديد: ١٦

﴿ ألم يأن ﴾ من أنى الأمر يأني إذا جاء إناه، أي وقته.

ووجه الموافقة بين هذا المعنى وبين قولهم في تأويل ﴿ آمنة ﴾ : بلغ غايته في شدة الحر أن الأمر إذا أنى إناه فقد بلغ الحد المقرر له، ولذلك استخدمت كلمة ﴿ آنية ﴾ لبيان أن الدرجة المقررة لشدة حر ذلك الماء ليست واحدة، بل هي درجات عديدة ففي كل مستوى من مستويات عذاب النار يكون الحد الأقصى لحرارة تلك العين متوافقاً مع هذا المستوى أو ذاك من النار. فكان من شواهد الإعجاز البياني أنك لاتجد في اللغة كلمة تصلح لأن تحل محلها، أضف إلى ذلك موافقتها لكلمة ﴿ حامية ﴾ في الوزن وفي الفاصلة ﴿ الياء والتاء ﴾

﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ ﴾ الغاشية: ٦

﴿ ضـــريع ﴾

* عامة المفسرين: هو نبت ذو شوك لاصق بالأرض، تسميه قريش الشبرق إذا كان رطباً، فإذا يبس فهو الضريع، لاتقربه دابة ولابهيمة وترعاه ، وهو سم قاتل، وهو أخبث الطعام وأشنعه.

وقد صيغت الآية في إطار أسلوب الحصر ﴿ ليس ، إلا ﴾ فأفادت بذلك أنهم ليس لهم طعام إلا ذلك الضريع، إلا أننا نجد ذكراً لأطعمة أخرى:

﴿ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ الحاقة: ٣٥ – ٣٦

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ ﴾ الدخان: ٤٣ – ٤٤

وفي ذلك كسر للدلالة الحصر الواردة في آية ﴿ الغاشية ﴾ وهو مالا يجوز في قانون اللغة، فخرج أهل التفسير من هذه المخالفة بقولهم :

ووجه الجمع بين كل ماذكر أن النار دركات، فمنهم من طعامه الزقوم ومنهم من طعامه الغسلين ، ومنهم من طعامه الضريع .

* إن دلالة العموم هي الإطار الذي يؤطر كلمات هذه الآيات

١- قسم الله الناس يوم الغاشية إلى قسمين ، قسم سيدخل النار، وقسم لن يدخل النار، وذكر الفريقين تحت لفظين: ﴿ وجوه خاشعة ﴾ و ﴿ وجوه ناعمة ﴾ وقد علمنا أن الذين سيدخلون النار ليسوا على مستوى واحد، فهناك الكافرون والمنافقون والعصاة، بل إن العصاة أنفسهم ليسوا سواء، وكل صنف له عذاب موافق لمستواه

٢- ولذلك جاءت كلمة ﴿ ناراً ﴾ نكرة، لتفيد أن النار ليست واحدة، بل درجات عديدة وكذلك مافي كلمة ﴿ آنية ﴾ من عمومٍ يستوعب كل تلك الدركات المرصودة لأهل الضلال.

٣- وهذا النسق يستوجب بأن تكون كلمة ﴿ ضريع ﴾ دالة على العموم، لتستوعب كل تلك الدركات، وهو مامن شأنه أن يهدم ذلك التوجيه الذي ذُكر في شأنه الجمع بين

الضريع والغسلين والزقوم . فما هي الدلالة التي تنسجم مع مافي السياق من عموم، ثم لايكون هناك تضارب بينها وبين ماذكر من أطعمة ؟

فيما يلي جملة من دلالات ﴿ ضرع ﴾ في اللغة .

* إن فُلاناً لضارع الجسم أي نحيف ضعيف، وفي الحديث أن النبي ﷺ رأى ولدي جعفر الطيار فقال: مالي أراهما ضارعين:

* البكر الضرع: الجمل النحيف .

* الرجل الضرع: الغمر الضعيف من الرجال.

مما سبق يتبين لنا أن ﴿ ضرع ﴾ تفيد معنى النقصان والضعف والهزال. حتى أن ماذكره عامة المفسرين في تفسير كلمة ﴿ ضريع ﴾ لم يخرج عن هذا المعنى لأن النبات اسمه الفعلي الشِّبرق، ولايقال له ضريع إلا إذا يبس، أي تناقصت خضرته ورواؤه، وكل نباتٍ أوثمر لحقه اليبس إنما هو ضريع، وذلك لنقصان قيمته الغذائية الذي جاء تبعاً لذهاب الخضرة والمائية عنه

وبهذا المعنى تصبح كلمة ﴿ ضريع ﴾ المذكورة في الآية ذات دلالة عامة ، ولا يمتنع معها تعدد أطعمة أهل النار: الغسلين، الزقوم، وغير ذلك، فكله طعام ضريع أي تناقصت قيمته الغذائية، وهو مابين جل شأنه فعاليته في الآية التالية لتلك الآية ، وهو قوله تعالى:

﴿ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ٧ ﴾ الغاشية: ٧

إن الطعام إذا لم تكن قيمته الغذائية كافية أدى ذلك إلى نحول الجسد، وطعام أهل الضلال في النار ﴿ ضريع ﴾ أي ناقص القيمة الغذائية، فهم لايسمنون معه أبداً وفوق ذلك

هو طعام لايشعر معه الكافر بالشبع فمهما أكل منه وارد النار فإنه سيبقى جائعاً، وقد ذكر الله عز وجل مشهداً لذلك الطعام، وهو قوله :

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ الواقعة: ٥١ ـ ٥٣

فهم يأكلون بنهمٍ، ليس لأن الطعام طيب، إنما رغبةً منهم في التخلص من وطأة الجوع، ولكن الجوع باقٍ، فيأكلون المزيد إلى أن تمتلئ بطونهم، فإذا امتلأت وقعوا في عذاب آخر، وهو قوله تعالى:

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ ﴾ الدخان: ٤٣ ـ ٤٥

المهل: هو الزيت المغلي، فيطلبون الماء لإطفاء ذلك الغليان، فلا يجدون إلا الحميم، وهو الماء الحار، الذي ذكره الله في الآيات التالية لتلك الآيات المذكورة من سورة الواقعة :

﴿ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ ﴾ الواقعة: ٥٤ ـ ٥٥

والهيم : هي الإبل العطاش، أي سيشربون شرباً شديداً من ذلك الحميم غير ملتفتين إلى حرارته الشديدة، وذلك لعظم الألم الذي يشعرون به من جراء ماأكلوه من الزقوم. اللهم إنا نعوذ بك من عذاب النار.

ثانياً: مآل الإيمان

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ ﴾ الغاشية: ٨ – ١٦

﴿ وجوه يومئذ ناعمة ﴾

تبين لنا في المجموعة السابقة أن الله تعالى ذكر مآل أهل الضلال في موقفين، موقف الحشر، وموقف العذاب في النار، وهو مايستدعي أن يكون خبر وجوه أهل الإيمان ماضياً على نفس النهج، ففي المجموعة الأولى جاءت الآية الأولى ﴿ وجوه يومئذ خاشعة ﴾ في بيان صورة وجوه أهل الضلال في الحشر ثم بين جل شأنه مبعث خشوع وجوههم بقوله ﴿ عاملة ناصبة ﴾ وكذلك هو الشأن مع أهل الإيمان، جاءت الآية الأولى لبيان صورة وجوههم في المحشر ﴿ وجوه يومئذ ناعمة ﴾ ثم ذكر منشأ هذه الصفة لديهم لقوله ﴿ لسعيها راضية ﴾ أما المرحلة الثانية في البيان فهي الإنتقال مباشرة إلى مايكون بعد الحشر، فذكر مع فريق الوجوه الخاشعة عذابهم في النار: ﴿ تصلى ناراً حامية ﴾ وذكر مع فريق الوجوه الناعمة سكنى الجنة ومافيها من نعيم ﴿ في جنة ٍ عالية ﴾ وفيما يلي جدولة لهذا النسق البياني:

رقم	صفة الجنة	موقف الحشر	مابعد الحشر
١	وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ	عاملة ناصبة	تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً
٢	وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ	لسعيها راضية	فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ

فما دلالة كون الوجه ناعماً ؟

الوجه الناعم هو الوجه املس الذي لاتجد فيه تغضنات ولانكماشات، كأنه وجه طفل يعيش بين أبوين ميسورين، وبالنظر إلى أن السياق يذكر فريقين على طرفي نقيض فإن التضاد أمر لازم بين الكلمتين: ﴿ خاشعة ، ناعمة ﴾ ليس في حد الدلالة اللغوية لكل منهما، إنما في الآفاق البيانية لكل منهما، ومن ذلك أن ماذكرته من دلالة نعومة الوجه يستدعي أن يكون خشوع الوجه دالاً على اشتماله على تلك التغضنات وتلك الانكماشات، وبالنظر إلى أن حالة الوجه تكون رسماً لما يُجول في ا لنفس، فإن اشتمال التفس على القلق والهم والغم والعلم بسوء المآل يُحدث في النفس انقباضاً شديداً يمتد أثره على الوجه، فتظهر عليه تلك التغضنات والانكماشات ، أما الوجوه الناعمة فنعومتها تعني أن عضلات الوجة ليست متوترة ، بل هي منبسطة، وهو انبساط يُعد ترجمة لانبساط النفس وهدوئها، وهي لاتكون كذلك إلا إذا كانت راضية، وهو ماذكره الله عز وجل في الآية التالية بقوله. ﴿ لسعيها راضية ﴾ وقد ورد في السنة النبوية بياناً لجملة من أصحاب الوجوه الناعمة، ومن بينهم أولئك المذكورون في حديث السبعة الذين يُظلهم الله في ظله يوم القيامة، فيحميهم من مكابدة عذاب الحشر وحر الشمس .

﴿ لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ ٩ ﴾ الغاشية: ٩

أثبت الله عز وجل لأصحاب الوجوه الناعمة صفة الرضى، وليس هناك من رضى يوم القيامة إلا بالنجاة من النار والفوز بالجنة، ولكن هذه الآية داخلة في مشهد موقف الحشر أي قبل التوجه إلى الجنة أو إلى النار، فكيف يتحقق الرضى قبل تحقق المآل ؟

إذا تلقى الإنسان صحيفة أعماله عَلِم من طريقة تلقيها ماسيؤول إليه

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ الحاقة: ١٩ ـ ٢٢

فقوله ﴿ إني ظننت أني مُلاقٍ حسابيه ﴾ يشير به إلى ماكان منه في الحياة الدنيا، وهو ماذُكر في هذه الآية بلفظ ﴿ سعيها ﴾ وقد أُستخدم هذا اللفظ في القرآن للدلالة على تكبد المشقة في العمل، وهو مناط ابتلاء الإنسان في الحياة الدنيا، ولذلك قال ﷺ:

﴿ حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات﴾رواه البخارى ومسلم

والمقصود بالمكاره:هو إجبار النفس على ما تكره،أى نهيها عن هواها،وهو قوله سبحانه﴿...وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ العصر:٣، نقرن الصبر بالتواصى بالحق،لأن الإلتزام بالحق يستدعى الصبر على رد النفس عن هواها.

*(لسعيها) جار ومجرور، ومتعلقه هو(راضية) والأصل أن يتأخر الجار والمجرور عن متعلقه، فأفاد بتقديمه فى الأية معنى الإختصاص، ووجه هذا الإختصاص أنه لاسبيل أمام الإنسان يوم(الغاشية) ليكون راضيا إلا ما كان منه من يسعى فى الحياة الدنيا،فلا مال ولاسلطان ولاقوة تنفعك يوم القيامة،لاينفعك إلا سعيك.

﴿ في جنة عالية ﴾

وافقت هذه الآية الثالثة من مشهد الوجوه الناعمة الآية الثالثة من مشهد الوجوه الخاشعة، إذ تم الإنتقال فيها من مشهد موقف الحشر إلى مشهد سكنى الجنة.

وجاءت كلمة ﴿ جنة ﴾ نكرة، والنكرة تفيد العموم، والعموم يستلزم التعدد وأصحاب الوجوه الناعمة ليسوا في درجة واحدة من الجنة، بل في درجات عديدة وكل درجة هي جنة

لوجوهٍ مخصوصة، وذلك على قدر ماكان عليه أصحاب تلك الوجوه من تقوى وصلاح في الحياة الدنيا.

* ﴿ عالية ﴾ ذكر أهل التفسير في معنى علوّ الجنة أنه من علوالمكان أو من علو القدر والمقام،والحال أن الكلمة جاءت لإضفاء المعنيين على الجنة لا لإضفاء واحداً منهما فقط، وبيان ذلك فيما يلي

علوّ المكان: فالجنة فوق السماء السابعة، وشاهد ذلك قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ ﴾ النجم: ١٣ ــ ١٥

وسدرة المنتهى،كما ورد الحديث الصحيح، في السماء السابعة.

علو القدر والمقام: وذلك لقوله سبحانه في وصف الجنة :

﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾ الزخرف: ٧١

وقوله في الحديث القدسي:

﴿ أعددت لعبادي الصالحين مالاعين رأت ولاأذن سمعت، ولاخطر على قلب بشر، فاقرأوا إن شئتم﴾ ﴿ فلا تعلم نفس ماأخفي لهم من قرة أعين ﴾ السجدة ١٧ ﴾ رواه البخاري ومسلم.

وبالنظر إلى دلالة كلمة ﴿ جنة ﴾ على الدرجات العليا والدرجات الدنيا من الجنة جاء الوصف ﴿ عالية ﴾ للاحتراز من أن يُظن أن الدرجة الدنيا من الجنة ليست عالية المكان

والمقام، فكل درجات الجنة ﴿ عالية ﴾ وشاهد ذلك أن آخر الناس خروجاً من النار ودخولاً إلى الجنة يقول له ربه:

﴿ تمنّهْ، فيسأل ربه ويتمنى، حتى إن الله ليُذكره من كذا وكذا، حتى إذا انقطعت به الأماني قال الله تعالى: ذلك لك ومثله معه- هذا في رواية أبي هريرة ، أما في رواية أبي سعيد رضي الله عنهما ففيها: أشهد أني حفظت من رسول الله ﷺ إلا قوله ﴿ ذلك لك وعشرة أمثاله ﴾ رواه مسلم

فهذا الرجل أدنى الناس درجة في الجنة، ولكن هذا الدنو لا يفقدها صفة ﴿ عالية ﴾ إذا أن جنته تعادل عشرة أضعاف جميع مافي الدنيا من نعيم.

﴿ لاتسمع فيها لاغيه ﴾

* لاغية : من لغا يلغوا لغواً، وهو السقط وما لايُعتد به من كلام وغيره، ولايحصل منه على فائدة ولانفع. فماذا في هذه الصفة من دلالة على جلال النعيم في الجنة .؟

إن نفي اللغو عن أسماع أصحاب الوجوه الناعمة في الجنة يعني أن كل فرد فيهم لايقول إلا حقاً، وهو مؤشر جليل القدر والمقام، أُبين آفاقه في المثال التالي :

عن عبدالله بن عمرو قال:

كُنْتُ أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أُريد حفظه، فنهتني قريش، فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ ورسول الله بشرٌ يتكلم في الغضب، فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال:

﴿اكتب، فو الذي نفسي بيده ماخرج مني إلا الحق ﴾ رواه أحمد وأبوداود

أي أن رسول الله ﷺ لم يلغ قط، فكل كلامه كان حقاً حتى وهو يمازح أزواجه أو أصحابه، ولم يكن اقتصار منطقه على قول الحق مانعاً يحجزه عن أن يعيش بشريته طولاً وعرضاً.

ووفقاً لذلك فإن نفي اللغو عن أهل الجنة يعني أن منطق كل منهم يماثل ماكان لرسول الله ﷺ من منطق في الحياة الدنيا، فلا تجد لغواً لدى أي منهم، بدون أن يكون في ذلك أدنى تقييد لهم في ممازحة أزواجهم من الحور العين، أو تواصلهم مع غيرهم من أهل الجنة

* ونفي سماع اللغو أبلغ من نفي قوله، فنفى قوله عمن دخل الجنة من الناس لايشمل دلالة نفيه عن مؤمني الجن. وعن الولدان المخلدين أما نفي السَّماع فيستغرق نفي قوله عن كل الأجناس وكل الطوائف

﴿ فيها عين جارية﴾

* عين : كلمة مفردة، وجمعها عيون، فهل أراد الله بذلك أن فيها عيناً واحدة ؟

من الثابت نصاً أن الجنة فيها عيون كثيرة، ولذلك قال أهل التفسير أن ﴿ عين ﴾ بمعنى عيون، وهو مانوافقهم عليه، إلا أنها موافقة مؤسسة على أساسين: لغوي وبياني، أما اللغوي فهو مجيء كلمة ﴿ عين ﴾ نكرة، وقد علمنا أن النكرة تفيد العموم، أي التعدد، فيه عيون، وليست عيناً واحدة. أما الجانب البياني فهو ذلك الخط الذي اشتملت عليه الآيات، إذ جاءت الألفاظ دالة على العموم، وهو ما استخدمت له النكرة :

ناراً– عين آنية– ضريع– وجوه– جنة –لاغية – عين :

وبناء على ذلك فإن مجيء كلمة ﴿ عين ﴾ نكرة يجعلها تحمل في طياتها كل مستويات التنعم بالعين الجارية كماً ونوعاً، وذلك تبعاً لدرجة الجنة، ففي الدرجة العليا من الجنة

هناك عين تسمى ﴿ تسنيم ﴾ لاترقى إلى مستواها أي عين من العيون الجارية فيما دونها من درجات الجنة، وفي شان هذه العين قال الله تعالى :

﴿ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ المطففين: ٢٧ ــ ٢٨

فهي عين اختص بها المقربون، وهم سكان الفردوس الأعلى.

﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾
الغاشية: ١٣ ــ ١٦

﴿ نمارق ﴾ : جمع نمرقة ، وهي الوسادة .

﴿ زرابي ﴾ : جمع زربية، وهي البساط.

والمشهد كما يلي:

عيون جارية في أنحاء الجنة وعلى صنفات هذه العيون بُسُطٌ فاخرة ممتدة، وعلىهذه البسط هنا أسرة مرفوعة، وغير الأسرة هناك وسائد فخمة يتكىء عليها من أراد الاضطجاع على تلك الوسائد ﴿ الزرابي ﴾

وفي شأن هذه الأسره قال تعالى في وصف المؤمنين :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ الحجر: ٤٧

* هذه الآيات أجزاء رُكبت منها صورة مخصوصة ، وهي مجالس أهل الجنة، ولذلك ذكرت معها كلمة ﴿ فيها ﴾ مرة واحدة ﴿ فيها سرر مرفوعة ﴾ ثم عطفت عليها بقية

الأجزاء بحرف العطف الواو. وكذلك العين الجارية ذكرت معها ﴿ فيها ﴾ من قبل إشارة إلى أن الماء ركن مستقل من أركان النعيم في الجنة، أي أنه ليس جزءاً ملازماً لصورة مجالس أهل الجنة، وذلك لاعتبارين اثنين، الأول أن المجالس قد تكون عند العين الجارية وقد لاتكون عندها، والثاني أن العيون الجارية مبثوثة في أنحاء الجنة ، فهي تحصيل حاصل ، فحيثما اراد المؤمنون مجلساً كان مجلسهم على جوانب مجرى إحدى هذه العيون .

* والقاعدة البلاغية تقول : وبضدها تتميز الأشياء، فكان في تعداد بعض ماأعده الله لأصحاب الوجوه الناعمة بعد تعداد ماأعده لأصحاب الوجوه الخاشعة تعميقاً لدلالة التعدادين:

	الوجوه الخاشعة		الوجوه الناعمة
١	تصلى ناراً	١	في جنة
٢	عين آنية	٢	عين جارية
٣	عاملة ناصبة	٣	فيها سرر مرفوعة وأكواب ....الآيات
٤	ليس لهم طعام إلا من ضريع	٤	في جنة

١- ذكرت مع أصحاب الوجوه الخاشعة كلمة ﴿ ناراً ﴾ وليس هناك من يجهل ماتُحدثه النار في الجسد من ألم وحرق، واستخدم مع أصحاب الوجوه الناعمة الضد المقابل وهو كلمة ﴿ جنة ﴾ والجنة في اللغة تعني البستان، وفي ظل الأشجار يكون الظل الظليل والنسيم العليل.

٢- أصحاب الوجوه الخاشعة عينهم التي يشربون منها ﴿ آنية ﴾ بلغت الحد في شدة الحرارة، وعين الوجوة الناعمة ﴿ جارية ﴾ وهذ الوصف فيه إلماح إلى أن العين الآنية ليست جارية، ويحبسها الله عنهم، لأنها برغم شدة حرارتها أخف حرارة من النار، فيرسلها الله عليهم ثم يحبسها عنهم ، وهذا شأنهم معها مدة مكثهم في النار .

٣- الوجوه الخاشعة ﴿ عاملة ناصبة ﴾ وقد ذكرت فيما سبق أن هذه الآية جاءت وصفاً لتلك الوجوه في موقف الحشر، وأضيف إلى ماذكرته سابقاً أن من كان في موقف الحشر عاملاً ناصباً فهو في النار أشد عملاً ونصباً. أما أصحاب الوجوه الناعمة فلا عمل ولانصب أما أصحاب الوجوه الناعمة فلا عكل ولانصب بل سُرُر مرفوعة ومارق مصفوفة زرابي مبثوثة وأكواب موضوعة، يشربون مما يُصب وهم فيها من ماء أوخمر أو لبن أوعسل

٤- أصحاب الوجوه الخاشعة ليس لهم طعام إلا من ضريع، وقد بينت دلالة ذلك فيما سبق، اما أصحاب الوجوه الناعمة فهم ﴿ في جنة ﴾ والجنة هي البستان وفي الحياة الدنيا يكون بستان الرجل حافلاً بالأشجار الخضراء المثمرة، هذا إلى اهتمامه بتنسيقها وجمال مظهرها، فإذا كان البستان الذي يُعده الإنسان موصوفاً بذلك الوصف فكيف يكون البستان ﴿ الجنة ﴾ الذي يُعده الله، مالك الملك ذو الجلال والإكرام، أي أن طعام الوجوه الناعمة هو من تلك الأشجار الكثيرة التي تحملها دلالة ﴿ جنة ﴾ .

تعقيب عام

علّق جل شأنه لفظ ﴿ الغاشية ﴾ بما يعتري الوجوه في الحشر والمآل، وهو ربط ليس بدعاً في البيان، فقد استخدمه العرب في بيانهم، فكان سمة جلية من سمات البيان، ومن ذلك قول الأعشى في وصف الفرسان العرب يوم ذي قار الذي تقاتلوا فيه مع جند الفرس

بيض الوجوه غداة الروع تحسبهم   جنان عين عليها البيض والزغف

فاستعار البياض للوجوه للدلالة على خلوها من أي سمه من سمات الخوف أو الفزع أو الجبن. وقد استخدم هذا البيان في القرآن :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ ﴾ النحل: ٥٨

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ آل عمران: ١٠٦ – ١٠٧

هذا إلى شواهد أخرى عديدة يقصر المقام عن استقصاءها، إذ هي في حد ذاتها مبحث مستقل، نقتصر منه على مايدل على أن ذكر الوجه،

في بيان حال الإنسان سمة من سمات البيان في اللغة وفي القرآن، وقد ارتبط الغشيان بالوجوه لدلالة الغشيان على التغطية، فالوجه تغشاه، أي تغطيه، السمات الدالة على حالته النفسية، وقد ذكر الله ذلك في كتابه الكريم، وهو قوله سبحانه:

﴿ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ يونس: ٢٧

وبذلك نفهم وجه الصلة بين ﴿ الغاشية ﴾ وبين دوران السياق حول الوجوه.

٢- شواهد هذه الحقيقة

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾ الغاشية: ١٧ – ٢٠

لم يصدق المشركون ماكان يخبرهم به محمد ﷺ من خبر الغاشية، وهو بعثهم من بعد موتهم، وأن الله أعد للناس ناراً وجنة ، حيث ذكر الله بعضاً من أحوال خلقهما في المقطع الأول ، فسفه الله عقولهم إذ كذبوا بخبر ﴿ الغاشية ﴾ وهم يشهدون بأبصارهم مايقطع بصحته، وهي تلك الشواهد الأربعة المذكورة في هذا المقطع:

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ ﴾ الغاشية: ١٧

* ﴿ أفلا ﴾ مكونة من ثلاثة مقاطع : همزة الاستفهام، الفاء، لا النافية أما الفاء فقد أُدرجت في التركيب لبيان أن مابعدها مترتب على ماقبلها، إلا أن ما قبلها ليس مذكوراً صراحة، إنما تمت الإشارة إليه بذكر القضية التي كذب بها المشركون وهي اليوم الآخر الذي يغشى الوجوه، فكان من تقديرات الله العليم الحكيم أن يسَّر للإنسان فيما يشهده ببصره مايدله على ماغاب عنه من حقائق الغيب .

وقد تأتي الواو مكان الفاء، فيقال ﴿ أولا ﴾ ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ﴾ التوبة: ١٢٦

وقد يُستغنى عن ذكر هذين الحرفين، فيُقال ﴿ ألا ﴾ وهو الأصل، ومن ذلك قوله تعالى بعد أن ذكر مايفعله المطففون :

﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ﴿٤﴾ ﴾ المطففين: ٤

والاستفهام يأتي مثبتاً ويأتي منفياً وذلك بالنظر إلى أن كل قضية يعتورها أمران، الفعل أو عدم الفعل، فصاحب النظر قد ينظر وقد لاينظر ، ولك أن تستفهم عن أي منهما، فتقول: أينظر ؟ أو ألا ينظر ؟ والذي يحدد المختار منهما هو السياق أو مقتضى الحال. وعلى ذلك فإن الآية لم تختر الاستفهام المثبت أينظرون ؟ لأن السؤال عن هذه القضية يقتضي أن يكون المراد هو معرفة الحد الذي هي عليه، أهي حاصلة أم غير حاصلة ؟ أما السؤال المنفي : أفلا ينظرون ؟ فيفيد أن أدوات النظر كلها متوفرة لدى الإنسان وهو ماأشرت إليه قبل قليل من أن الله يسر للإنسان فيما يشهده ببصره مايدله على ماغاب عنه من حقائق الغيب فلما رأى تكذيبهم بخبر ﴿ الغاشية ﴾ كان مدار الاستفهام هو : لاينظرون، أهم متلبسون بمضمونه أم لا ؟ وذلك بالنظر إلى أن كل أدوات النظر حاصلة لديه . وفي ذلك توبيخ وتسفيه لعقول الذين يكذبون بالغاشية، إذا انساقوا إلى التكذيب وهم يملكون في أنفسهم وفيما حولهم مايقودهم إلى الحق المبين .

* ﴿ أفلا ينظرون إلى الأبل كيف خلقت ﴾

النظر قد يكون بصرياً وقد يكون قلبياً، فإذا كان بصرياً تعدى بحرف الجر ﴿ إلى ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ومنهم من ينظر إليك ...﴾ يونس ٤٣ ..فحد النظر موقوف عند مجرد النظر إلى شخص رسول الله ﷺ . وإذا كان البصر قلبياً لم يُذكر معه حرف الجر ﴿ إلى ﴾ ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ ﴾ الطارق: ٥

إذ ليس المراد أن يتوجه النظر للوقوف عند حد ماتراه العين ، بل المراد أن يتوجه النظر إلى أبعد مما تراه العين هو مايعنيه النظر القلبي .

وقد جمع الله النظرين في الآية التي نحن بصددها، النظر البصري ﴿ إلى الإبل ﴾ والنظر إلى ﴿ كيف خلقت ﴾ وقد ذكر أسلافنا الكرام من سمات خلق الإبل ظاهراً وباطناً مايشير إلى تميزها بسمات خلقية لاتوجد في غيرها من الحيوان، وزاد المعاصرون على ماذكره الأولون جملة سمات لم يرد لها ذكر من قبل...وكتاب الإبل مازال مفتوحاً □

﴿ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ ﴾ الغاشية: ١٨

المقصود بالسماء هو الغلاف الجوي بطبقاته السبع التي ذكرناها بالتفصيل عند تفسير سورة ﴿ النازعات ﴾ وهو ماأشار إليه سبحانه بقوله .

﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ﴿٤﴾ ﴾ الملك: ٣ ـ ٤

أما البصر القلبي ﴿ التدبر ﴾ فهو مايشير إليه قوله تعالى :

﴿ ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ ﴾ النازعات: ٢٧ ـ ٢٩

وكنت قد فصلت القول في تلك الآيات، وذكرت ان السماء ﴿ الغلاف الجوي ﴾ كان قريباً من الأرض في بدء التكوين، ثم رفعه الله، أي جعل له ذلك الامتداد الذي يبلغ عشرات الكيلومترات.

﴿ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ ﴾ الغاشية: ١٩

تبين للعلماء أن الجبل كتلة صخرية لها امتداد فوق الأرض وتحت الأرض، فهي كالوتد المغروز في الأرض، أما النظر البصري فهو ذلك الامتداد الذي يلوح للناظر فوق سطح الأرض، أما النظر القلبي فهو ما علمه الإنسان من امتداد للجبل في باطن الأرض، والوظيفة التي تؤديها الجبال في الأرض، وسر انتصابها في أماكن معلومة من الأرض

﴿ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾ الغاشية: ٢٠

لم توصف الأرض بهذه الصفة إلا في هذا الموضع، وهذه الخصوصية تستدعي دلالة خاصة لاتؤديها دلالات المد والبسط والدحو والطحو، وهو أن السطوح تأخذ هيئات عديدة، ملساء ممتدة أو متعرجة أو خشنة إلى غير ذلك من الهيئات، وقد قال تعالى في هيئة الأرض التي سيحشر عليها الناس يوم القيامة :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾
لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ طه: ١٠٥ ـ ١٠٧

قاعاً صفصفاً: مستوية ملساء .

عوجاً ولاأمتا: انخفاضاً ولاارتفاعاً

وهو ماذكره ﷺ في قوله :

﴿ يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي، ليس فيها علم لأحد ﴾ رواه مسلم والبخاري

علم : علامة من بناء أو ارتفاع أو أثر ، فهي مستوية .

أما في الحياة الدنيا فسطح الأرض ليس مستوياً، بل هو سطح متفاوت جبال ووديان وسهول وأحواض للبحار والأنهار، ولولا هذا التسطيح لما استقامت الحياة على الأرض.

أولاً الصلة بين المقطعين :

قلت، وقد سبقنا الأولون إلى هذا القول، إن القرآن مترابط الآيات والسور كأنه آية واحدة،وأكثر مايكون ذلك الترابط في السورة الواحدة، إذ يتجلى ذلك الترابط الوثيق في آياتها ومقاطعها ومعانيها وقد التفت الأولون إلى الترابط الكائن بين المقطعين السابقين فذكروا ذلك في قولين، سأقتصر على ذكر أحدهما، لأنه الأجل والأسمى والأكثر عُلوقاً بالسياق، وهو قولهم: أفلا ينظرون إلى هذه المخلوقات الشاهدة على قدرة الله حتى لاينكروا اقتداره على البعث، فيسمعوا إنذار الرسول ويؤمنوا به ويستعدوا للقائه .

ثانياً: منظومة الخلق

ذكر الله عز وجل في الآيات الأربع الفائتة الأركان الثلاثة التي قام عليها نظام الحياة الدنيا: السماء ورفعها، والجبال ونصبها، والأرض وسطحها ومناط النظر في هذه الآيات الثلاث هو البحث العلمي الصِّرف:

فهذه السماء المحيطة بالأرض ﴿ الغلاف الجوي كتلة غازية . مكونة من تألف جملة من الغازات، فرفع الله ذلك الغلاف ﴿ السماء ﴾ وبناه ورفع بناءه حتى بلغ به علواً تجاوز المائة كيلو متراً،و بدون هذه السماء لاستحالت الحياة على الأرض. أي أن هذه السماء ركن من أركان قيام معنى الحياة الصالحة لمعاش الإنسان وهذا الارتفاع ارتفاع موزون، فلا هو أقل ولاهو أكثر، فكان ضغط الهواء الناشئ عن هذا الارتفاع ملائماً لطبيعة خلق الإنسان، ففي الأجواء العليا من الغلاف الجوي يتناقص الضغط، وهو مامن شأنه أن تنفجر بسببه العروق، لأنه الضغط الداخلي للجسم سيكون أعلى من الضغط الخارجي .

والأرض قبل أن تُنصب فيها الجبال كانت تضطرب وتميد، وهو ما يستحيل معه أن تكون الأرض مُستقراً للإنسان، قال تعالى:

﴿ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا ﴾ النحل: ١٥

والنصب يعني التثبيت في الأرض مع بروز جزء من المنصوب فوق الأرض وهو ماتفيده دلالة ﴿ رواسي ﴾ المذكورة قبل قليل..

وسطح الأرض قدره الله تقديراً ليكون مهاداً للإنسان، قال تعالى:

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ نوح: ١٩ - ٢٠

وحد هذا البسط هو ماأشرنا إليه من قبل من دلالة السطح، فسطح الأرض غير سطح القمر الذي يمتلئ بالحفر العميقة بسبب مايتساقط عليه من نيازك، فلولا ذلك الذي يغلف الأرض لاخترقت النيازك سطحها ولغدا حاله كحال الغربال .

ولو أردنا تتبع الحقائق العلمية التي تذكر جملة من خصائص تكوين السماء ورفعها وإرساء الجبال ونصبها ومدّ الأرض وبسطحها لاستغرق ذلك مجلداً كبيراً، وهو مالاسبيل إليه في هذا المقام، إنما نكتفي بالغاية المرادة من ذلك، وهي أن الإنسان إذا التفت إلى الدقة البالغة في بناء منظومة الحياة في الأ رض : السماء، الجبال، الأرض، لأيقن أن ماذكره الله من أحوال العذاب والنعيم في المقطع الأول ليس بمستعصٍ عليه سبحانه وهو الخلاق العليم

* وملمح القدرة فيما ذكره الله من نعيم أهل الجنة هو مجيء تلك الصفات أسماء، وهي عالية، جارية ، مرفوعة، موضوعة ، مصفوفة، ومبثوثة ، والاسم يفيد الثبات، فدلت هذه الاسمية على أنها أحوال ثابتة، لايتكلف المؤمن إعداد شيء منها كما هو الحال معه في الحياة الدنيا، فكل مايشتهيه مرهون بمشيئة، فإذا أراد سريراً مرفوعاً أو زربية مبثوثة ..أو غير ذلك وجده حاضراً أمامه بدون أن يكلف نفسه عناء الانتظار، وكل ذلك إنما هو من خلق الله

﴿ الإبل ومنظومة الخلق ﴾

أبدأ الحديث في هذا الأمر بالقول إن الإبل ليست مدرجة في منظومة خلق أركان الحياة في الأرض، ودليل ذلك أن الله لم يذكر لها صفة إجرائية إنما دعا الناس إلى النظر إلى طبيعة خلقها، أما السماء والجبال والأرض فلم يكتف بذكر أمر خلق أي منها، بل ذكر مع كل منها صفته الإجرائية في الحياة الدنيا، رفع السماء ونصب الجبال وسطح الأرض، وكل ذلك إنما هو بيان لكيفية الخلق، أما الإبل فذكر الله خلقها الإبل تحديداً إلى جانب ذكر أركان الخلق في الأرض من شأنه أن يكون مؤشراً على جلال شأن الإبل، وهو مؤشرٌ يزداد توثيقاً إذا وجدنا له ذكراً في موضع آخر، وهو قوله تعالى

﴿ إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ٣ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ٤ ﴾ التكوير: ١ - ٤

فعند ذكر نظام بناء الحياة في الأرض ذكر الإبل، وعند ذكر هدم ذلك البناء ذكر ﴿ العشار ﴾ وهي بلا خلاف بين المفسرين إناث الإبل. وكأن الإبل بهذا الذكر لها موقع ﴿ ما ﴾ في نظام بناء الحياة في الأرض. وكذلك هو الشأن معها في التشريع، إذ كان النظر إليها نظراً مخصوصاً، ومن ذلك .

* قال الله تعالى :

﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٣ ﴾ آل عمران: ٩٣

عن ابن عباس رضي الله عنهما :

﴿ أن اليهود قالوا للنبي ﷺ : ماحرم إسرائيل على نفسه ؟ قال : ﴿ كان يسكن البدو فاشتكى عرق النسا فلم يجد شيئاً يلائمه إلا لحوم الإبل وألبانها فلذلك حرمها ﴾ قالوا : صدقت ....رواه الترمذي

وكأن ماكان من إسرائيل ﴿ يعقوب ﴾ عليه السلام كان تدبيراً من الله تعالى ليحرم به لحوم الإبل وألبانها، وقد بقى التحريم سارياً مع نزول التوراه، وقد أشار ﷺ إلى ذلك بقوله

﴿ فقدت أمة من بني إسرائيل ، وماأُراها إلا الفأر، ألا ترون أنها إذا قدم لها لبن الشاه شربته، وإذا قدم لها لبن الإبل لم تشربه ؟ ﴾

فهذه الفأر، على مارأى رسول الله ﷺ ، كانت أمة من بني إسرائيل مسخت إلى الفأر، فمضى عليها وهي فأر ماكان مفروضاً عليهم قبل المسخ، وهو تحريم لحوم الإبل وألبانها.

* أما شريعتنا الإسلامية السمحة فقد رفع عنها كل حرج، فلم تُحرم فيها لحوم الإبل وألبانها، بل هي مما أحله الله، إلا أن الله تعالى جعل في ذلك قيداً غير مباشر، وهو قول رسول الله ﷺ :

﴿ من أكل لحم جزور فليتوضأ ﴾

فلماذا يتوضأ المسلم إذا أكل لحم جزور فقط من بين سائر ماأحله الله من لحوم ؟ ووجه القيد في ذلك هو أن النفس قد تتقاصر عن تجديد الوضوء،فيدفعها ذلك التكليف إلى تجنب أكل لحم الجزور، وهو مامن شأنه أن يقلل من نسبة الإقبال على ذبح الإبل.

وقد ذكر أسلافنا الكرام أنه تم ذكر الإبل لأنها كانت أكثر أموال العرب في ذلك الأوان وهو تأويل من شأنه أن يفقد الآية جلال الدلالة في السياق العام، إنما تم ذكرها تحديداً لما لها من مقام في منظومة بناء الحياة في الأرض، فما هو هذا المقام ؟ سؤال من شأنه أن يستثير العقول للمزيد من النظر والتدبر.

٣- وماعلى الرسول إلا البلاغ .

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

﴾ الغاشية: ٢١ - ٢٦

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ ﴾ الغاشية: ٢١

الفاء دليل على أن مابعدها مترتب على ماقبلها، والأمر في الفعل ﴿ ذكر ﴾ موجه إلى رسول الله ﷺ ، وقد أمره جل شأنه بهذا الأمر تأسيساً على ماقدمه من حيثيات في الآيات السابقة، فالغاشية خبر غيبي أمر محمد ﷺ بتبليغه للناس، ثم نبهه إلى أن لاينشغل إلا بالبلاغ، فلا يهتم ولايغتم من إعراض المشركين، ولايكف نفسه مالم يُكلف، لأنه سبحانه قدّم للإنسان مايدله على سبيل الحق، إذ جعل له عقلاً يدرك به الآيات، وبث أمام بصره الشواهد التي تدله على خبر الغاشية، وهي تلك الآيات التي تذكر الإبل والسماء والجبال والأرض، ولم يبق للناس عند ربهم إلا أن يرسل لهم رسولاً يخبرهم بالحق الذي ضلوا عنه. ووفقاً لذلك كله فليس على الرسول إلا أن يبلغ ماأنزل عليه، وليس عليه أن يهدي هذا أو ذاك، لأن أسباب الهداية حاضرة بين يدي الإنسان، وقد خيره الله بين أن يأخذ بها أويدعها، وهو مناط ابتلاء الإنسان.

* ﴿ فذكر ﴾ التذكير هو إعلام الإنسان بأمر كان منه ثم نسيه، وقد حصر جل شأنه مهمة عبده ورسوله في هذه الكلمة باستخدام أداة الحصر ﴿ إنما ﴾ أي أنه كان يذكر الناس بأن ربهم هو الله، فهل كان الناس على علم بذلك ثم نسوا ذلك العلم ؟

قال تعالى : ☐

﴿ وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ ﴾ الأعراف: ١٧٢

وقد ذكر أهل التفسير أن الناس جميعاً شهدوا أن الله ربهم إذ كانوا في عالم الذر . ولذلك كان مضمون هذا الميثاق حاضراً في فطرة كل إنسان ، وهو قوله تعالى

﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا ﴾الروم: ٣٠

وقال رسول الله ﷺ

﴿ مامن مولود إلا ويولد على الفطرة فأبوه يهودايه وينصرانه ويمجسانه ﴾ رواه مسلم

﴿ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢ ﴾ الغاشية: ٢٢

* المسيطر والمصيطر : المسلط على الشيء ليشرف عليه ويتعهد أحواله، فهو يحكم فيه بما يشاء، فنفى الله عز وجل عن عبده ورسوله صفة السيطرة أي القدرة النافذة على دفع الناس إلى الإيمان، وفي ذلك قال تعالى:

﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾القصص: ٥٦

حيث أجمع المفسرون على أنها نزلت في أبي طالب عم النبي ﷺ ، أراد منه النبي ﷺ أن يقول لإله إلا الله، ليشفع له بها عند ربه، ولكنه أبى، وقد كان رسول الله يحبه، لأنه كفله صغيراً وردّ عنه بطش قريش، فلم تكن كرامة النبوة والرسالة لتجعل أمر رسول الله ﷺ نافذاً على أقرب أهله إليه ، فمات أبو طالب على دين عبد المطلب...

فهذه الآية والآية السابقة لها وجهان لأمر واحد، ففي هذا الوجه ينبه الله عز وجل عبده ورسوله إلى أن شرف النبوة والرسالة لايجعله مسيطراً على قلوب الناس، ليقود ماشاء منها إلى الإيمان، أما الوجه الأول فهو ما كان من ذكر الصفة الواجبة له وعليه. وهي قوله: ﴿ إنما أنت مذكر ﴾ .

* وقد قدم الجار والمجرور ﴿ عليهم ﴾ على متعلقة ﴿ بمسيطر ﴾ فأفاد بذلك الاختصاص، وهو نفى سيطرة الهداية تحديداً، لا نفي السيطرة مطلقاً، وهو ماسنلحظه في الآية التالية لهذه الآية . وقد اقترنت الباء بخبر ليس ﴿ بمسيطر ﴾ لتفيد بذلك استغراق نفي سيطرته على الناس، وهو إجبارهم على الإيمان بما أنزله الله عليه، وكنت قد فصلت القول في شأن هذه الباء عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ التكوير: ٢٢

﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الغاشية: ٢٣

قيل في تفسير الآية :

الاستثناء في الآية استثناء منقطع، و ﴿ إلا ﴾ هنا بعنى : لكن، أي لست بمسؤولٍ عليهم ولكن من تولى منهم وكفر فيعذبه الله...

وقيل: هو اشتثناء متصل، والمعنى : لست بمسلط إلا على من تولى وكفر، فأنت مسلط عليه بالجهاد، والله يعذبه بعد ذلك العذاب الأكبر.

والقول الأجدر بالاتباع هو القول الثاني ، وذلك أنني ذكرت أن نفي السيطرة ليس نفياً مطلقاً، إنما هو نفي محدود ، مداره أن محمداً ﷺ لايملك سطلة توجيه قلوب الناس إلى الإيمان ، ولكنه مشتمل على سلطة بث الرعب في قلب من تولي وكفر، ومن ذلك :

قال ابن إسحاق ﴿ وقدم رسول الله ﷺ على علي بن أبي طالب رضوان الله عليه برايته إلى بني قريظة، وابتدرها الناس، فسار علي بن أبي طالب حتى إذا دنا من الحصون سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ ، فرجع حتى لقي رسول الله ﷺ بالطريق، فقال : يارسول الله، لاعليك أن تدنو من هؤلاء الأخابث، قال: ﴿ لم ؟ أظنك سمعت منهم لي أذى قال: نعم يارسول الله، قال: ﴿ لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً ﴾ فلما دنا رسول الله ﷺ من حصونهم قال : ﴿ ياأخوان القردة، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته .؟﴾ قالوا : ياأبا القاسم ماكنت جهولاً ....

فقد كان ﷺ ذا سيطرة على قولب الكفار، فلا تملك قلوبهم إلا أن ترتعب لمرآة أو لذكره، وقد ورد عنه لله قوله :

﴿ نُصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهرٍ ﴾

قال تعالى :

﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٦﴾ ﴾ الحشر: ٦

وكنت قد ذكرت من قبل أن ﴿ مسيطر ﴾ تعني المسلط، وهاهو جل شأنه يثبت هذه الصفة لعبده ورسوله بقوله : ﴿ ولكن الله يسلط رسله على من يشاء ...﴾ إلا أنه تسليط على ﴿ من تولى وكفر ﴾ ببث الرعب في قلوبهم وكسر شوكتهم .

﴿ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ ﴿٢٤﴾ ﴾ الغاشية: ٢٤

العذاب الأكبر : هو عذاب النار، وقد دخلت الفاء على هذه الجملة لتفيد أن العذاب الأكبر يأتي بعد وقوع دلالة ﴿ مسيطر ﴾ على من تولى وكفر، وأفعل التفضيل ﴿ الأكبر ﴾ فيه إشارة إلى أن تسليط رسول الله على من تولى وكفر هو العذاب الذي جاءت المفاضلة بينه وبين عذاب النار، فالقتل والأسر والتشريد لمن تولى وكفر على يد رسول الله عذاب لهم وهو عذاب كبير ، فإذا جاء يوم القيامة عذبه الله الأكبر، وأركان هذه الدلالة جميعاً مذكورة في قوله الله تعالى في شأن ذي القرنين:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ ﴾ الكهف: ٨٦ ــ ٨٧

فقول ذي القرنين ﴿ فسوف نعذبه ﴾ قائم على ماقدره الله له من أسباب جعلته مسيطراً على ﴿ من ظلم ﴾ فإذا رجع هذا الظالم إلى ربه يوم القيامة ﴿ فيعذبه عذاباً نكراً ﴾ أي أكبر من العذاب الذي وقع عليه في الحياة الدنيا.

﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾ الغاشية: ٢٥ ــ ٢٦

* هاتان الآيتان هما الركن الثالث في بيان أركان البلاغ:

الركن الأول: الاقتصار على التذكير.

الركن الثاني: نفي سيطرته عليهم في دعوتهم إلى الإيمان.

الركن الثالث: ترك الناس لخياراتهم هو مناط الحساب يوم القيامة وهو مايستوجب على الرسل مجرد التذكير، لاأن يسيطروا على الناس فيجبروهم على الإيمان، وقد قال تعالى

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾البقرة: ٢٥٦

* وقد استخدم التأكيد في الآيتين على وجهين، الأول استخدام ﴿ إن ﴾ والثاني تقديم الجار والمجرور ﴿ إلينا ، علينا ﴾ على متعلقيهما ﴿ إيابهم، حسابهم ﴾ وتقديم الجار والمجرور على متعلقة يفيد الاختصاص، أي أن الناس لن يكون لهم مآل إلا الإياب ﴿ الرجوع ﴾ إلى الله، وكذلك حسابهم لن يقوم عليه أحد إلا الله، وكأنما الله عز وجل يريد بآيات هذا المقطع أن ينبه عبده ورسوله إلى بعض شأنه في معرض دعوته إلى الإيمان بالله وباليوم الآخر، وذلك لما رآه من حرصه البالغ على إيمان الناس، واغتنامه الشديد لما يراه من بطش المشركين بالقلة الذين آمنوا به في مكة . ومن هذا الوجه كان ارتباط هذا المقطع بالمقاطع السابقة من هذه السورة الكريمة، إذ كان رسول الله ﷺ يردد على أسماع الناس خبر ﴿ الغاشية ﴾ بألفاظ عديدة، فواجهه المشركون بالكفر والعناد ، فعز عليه مايراه من إعراضهم ، فساق الله عز وجل له منظومة ماقضاه في خلق الإنسان، وختم ذلك البيان بقوله له ﴿ إنا إلينا إيابهم ، ثم إن علينا حسابهم ﴾ إشارة أنه ماخلقهم واستخلفهم في الأرض إلا لهذه الغاية .

﴿ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٨ ﴾ المائدة: ٦٨

الخط البياني

وهو إدراج لمقاطع السورة في هيكل يبين مابين المقاطع من ترابط

هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ﴿١﴾	
وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ﴿٣﴾ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ ﴿٤﴾ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ﴿٥﴾ لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ﴿٦﴾ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ﴿٧﴾	الخاشعة ومآل الناس فيها ١- مآل أهل الضلال
وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ ﴿٨﴾ لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ﴿١٠﴾ لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ ﴿١١﴾ فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ ﴿١٣﴾ وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ ﴿١٦﴾	٢ - مآل أهل الإيمان
أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴿٢٠﴾	٣- شواهد هذه الحقيقة
فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴿٢١﴾ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾	ماعلى الرسول إلأ البلاغ

Salim٥٦٠@hotmail.com

تابعونا على صفحة التواصل الإجتماعي: منتدى الإعجاز البياني في القرآن الكريم

محمد مبارك المزيودي